الباب السابع

الحج في العصر العثماني « التركي »

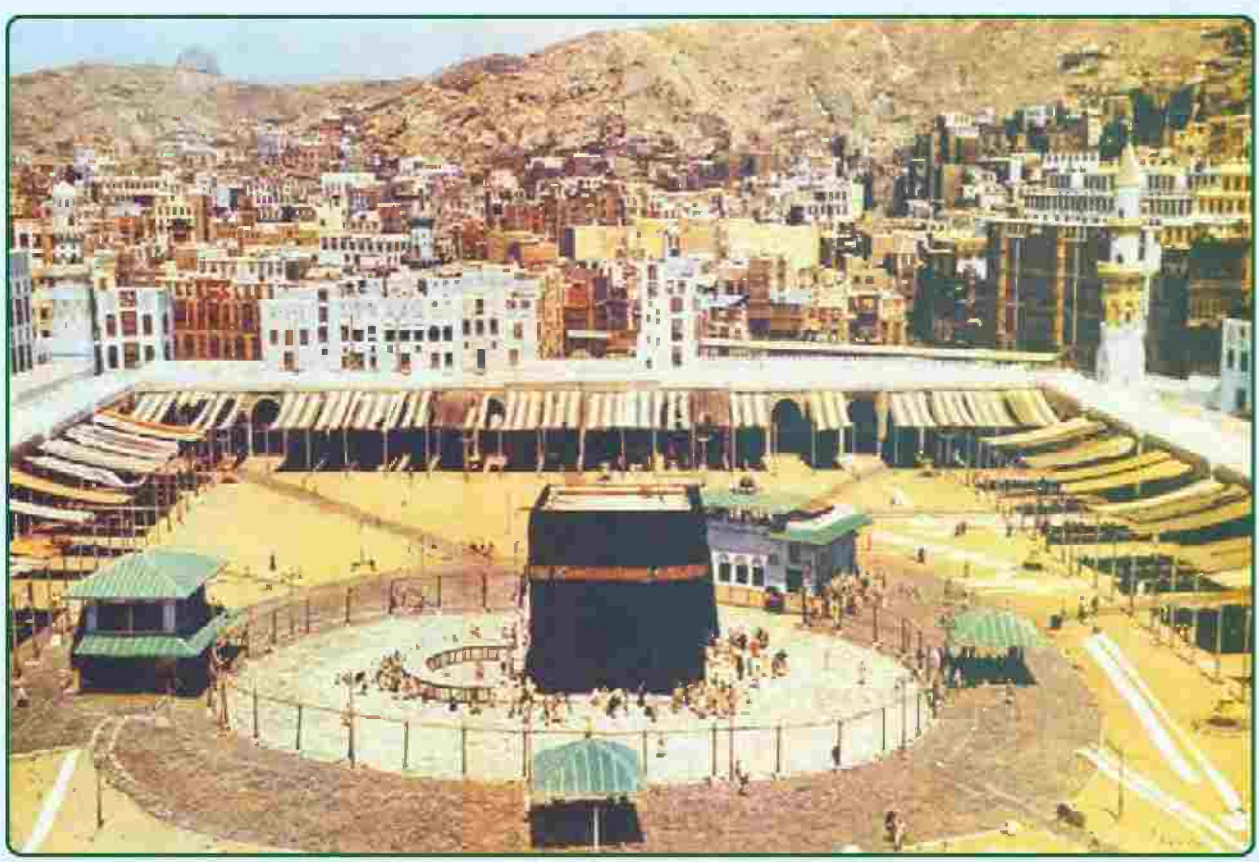

الحج في العصر العثماني

لقد كانت السمة الدينية من أهم السمات التي اتسمت بها تشريعات الدولة العثمانية؛ فقد كان للهيئة الإسلامية وضع معترف به، وكان يطلق على رئيسها لقب المفتي، أو مفتي إستانبول، ثم تغير هذا اللقب إلى "شيخ الإسلام" الذي كان يشرف على الهيئات القضائية، والهيئات ذات الطابع والنشاط الديني. وكان السلاطين أنفسهم حريصين على تدعيم سلطته، فقد كان شيخ الإسلام يصدر فتوى تجيز الحرب، دفاعاً، أو هجوماً، وعقد الصلح، وغير ذلك من الأحداث الجسام. وقد كان من مظاهر اهتمام الدولة العثمانية بالدين، والعالم الإسلامي اهتمامها بمنصب نقيب الأشراف [1].

الحجاز في العهد العثماني:

كما كان الاهتمام الكبير بالحجاز من السمات التي حافظ عليها كل السلاطين العثمانيين؛ فقد كان الحجاز وما يحويه من أماكن إسلامية مقدسة تابعاً للدولة العثمانية؛ مما أضفى عليه مركزاً دينياً مرموقاً في جميع أرجاء العالم الإسلامي. وقد أعفت الدولة العثمانية منطقة الحجاز من أداء الضرائب، بل أقر لها سليم الأول ثلث ما كان يُجبى من مصر، كما أوقف خراج اليونان عند فتحه على الحرمين الشريفين. ولم يكن الاهتمام وقفاً على الأماكن، بل تعدّاها إلى المواطن، فقد أعفى سكان الحجاز من التجنيد، وأبقت الدولة على الحكم الذاتي المتمثل في نظام الشرافة، وكل ما كانت تفعله أن ترسل فرماناً تحدد فيه إمكانات، واختصاصات، وواجبات الشريف الجديد عند تعيينه، وتوصيته ببعض الوصايا التي كانت تتصب في أغلبها على حماية الحجاج في أموالهم، وأرواحهم، وأن يقسم بالعدل الصرَّة الهمايونية بين الأهالي، وكذلك المؤن القادمة من مصر، وأن يسعى لبسط الأمن على الطرق. وكان أمير مكة المكرمة يتمتع - في التشريفات - بأسمى مقام في صف الصدر الأعظم في الآستانة، والخديوي في مصر، وترتب له العطايا من قبل السلطان.

ولكن الشيء الذي أولته الدولة العثمانية جل اهتمامها، هو قوافل الحج، والإشراف المباشر والفعلي على الحج، واعتبرت هذا العمل واجباً يقع على عاتقها؛ باعتباره الركن الخامس من أركان الإسلام، وأن عليها تيسير الحج أمام الراغبين فيه، فأنشأت قوافل الحج، واهتمت بالطرق؛ فأقامت الحصون، وحفرت الآبار على طول طرق الحج، وشجعت على إقامة الخانات، وأقامت المخافر، وكانت تشرف على قوافل الحج الرئيسة التي كانت تخرج من أنحاء الدولة كافة في مواعيد محددة كل عام، وتضع لها قوة تحرسها، يقودها أحد كبار العسكريين، الذي كان يسمى "سَرْدَارُ الحج"، وكان على رأس كل قافلة أميرٌ للحج، وكثيراً ما كان أمير الحج يتولى قيادة الجيش المرافق للقافلة، وخاصة قافلة الحج الشامي [2].

---

١ - ٢ ، أ.د. الصفصافي أحمد القطوري - جامعة عين شمس - مصر، مجلة حراء / تاريخ وحضارة: العدد ٢ (يناير-مارس) ٢٠٠٦ .

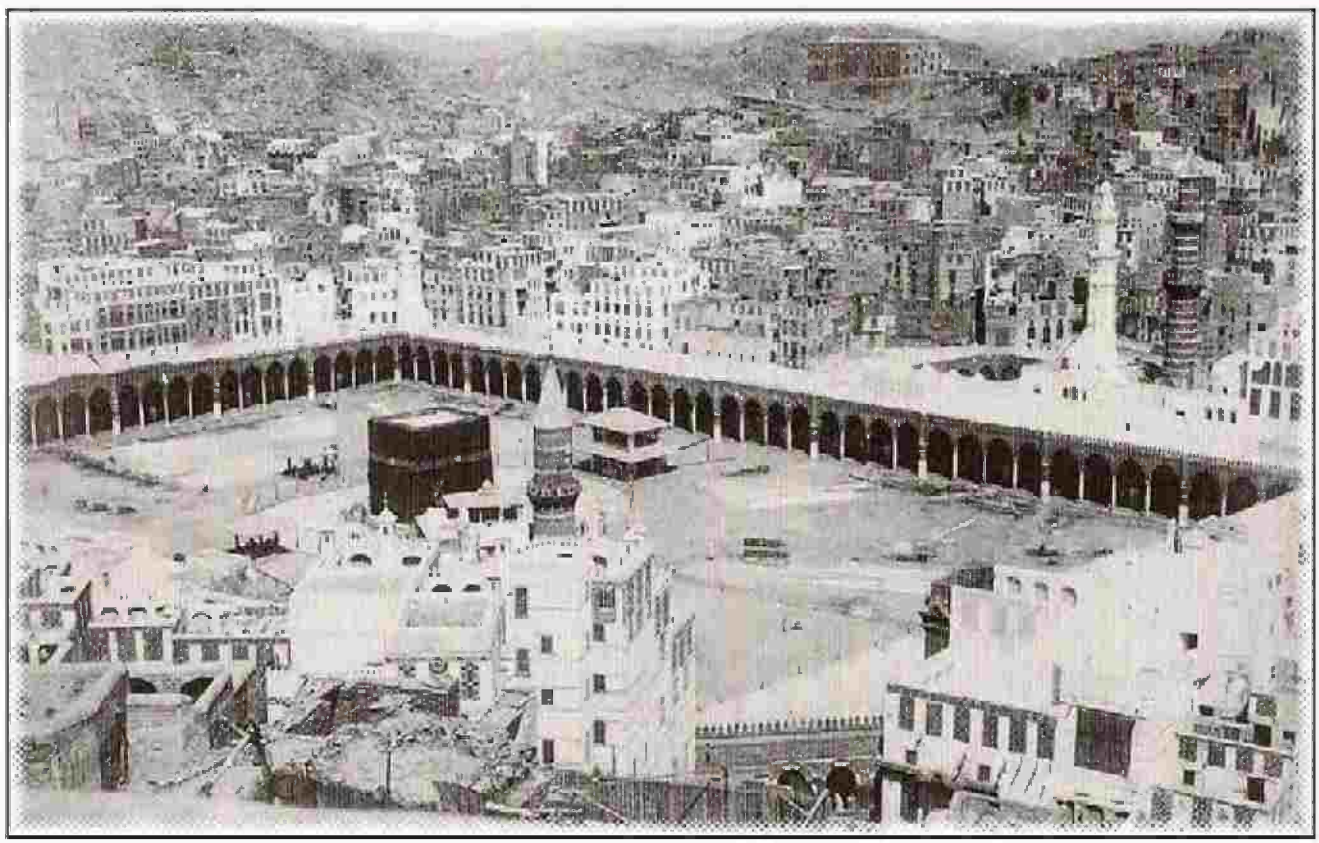

منظر لمكة المكرمة والحرم الشريف في العهد العثماني، تصوير، محمد صادق بك سنة ١٢٩٧ هـ ١٨٨٠ م

مصدر الصورة (مكة المكرمة والمدينة المنورة) صور نادرة ، نماذج من مقتنيات مكتبة الملك عبد العزيز العامة ، ١٤٢٢ هـ

تعد التوسعة التي أتمها السلطان العثماني مراد خان الرابع وبدأها والده السلطان سليم الأول في الفترة الواقعة ما بين عام ٩٨١ هـ إلى عام ٩٨٤ هـ بمثابة تجديد كامل للمسجد الحرام منذ عمارة الخليفة المهدي العباسي التي انتهت عام ١٦٤ هـ.

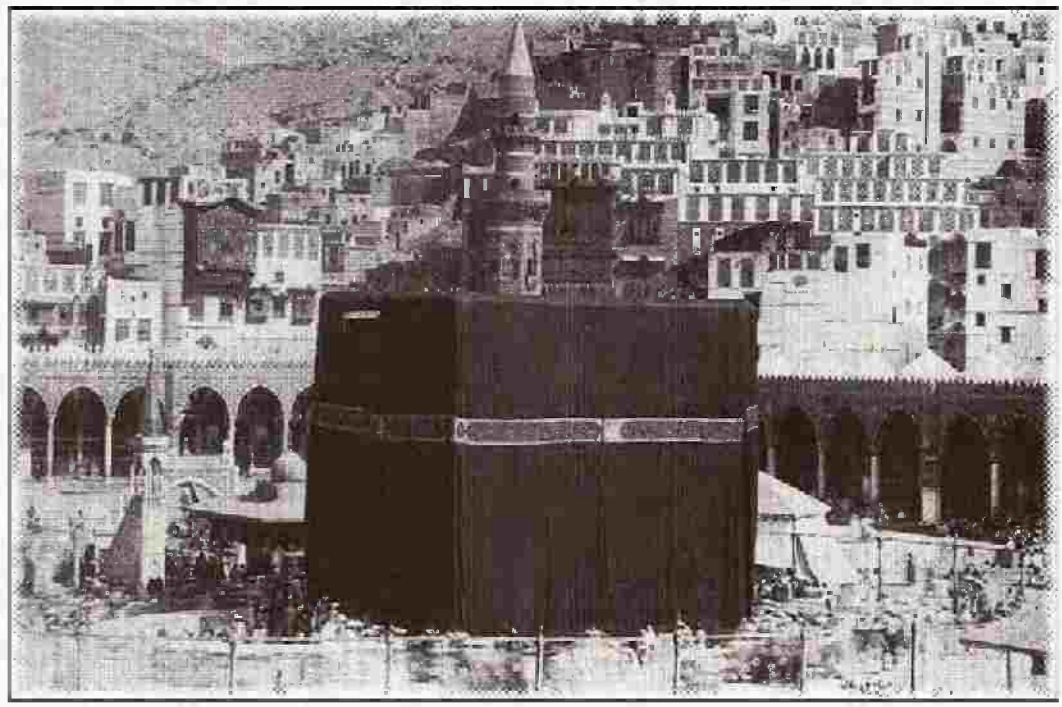

الكعبة المشرفة وتبدو أحد مآذن الحرم المكي الشريف في العهد العثماني، تصوير ، محمد صادق بك سنة ١٢٩٨ هـ ١٨٨١ م

مصدر الصورة (مكة المكرمة والمدينة المنورة) صور نادرة ، نماذج من مقتنيات مكتبة الملك عبد العزيز العامة ، ١٤٢٧ هـ

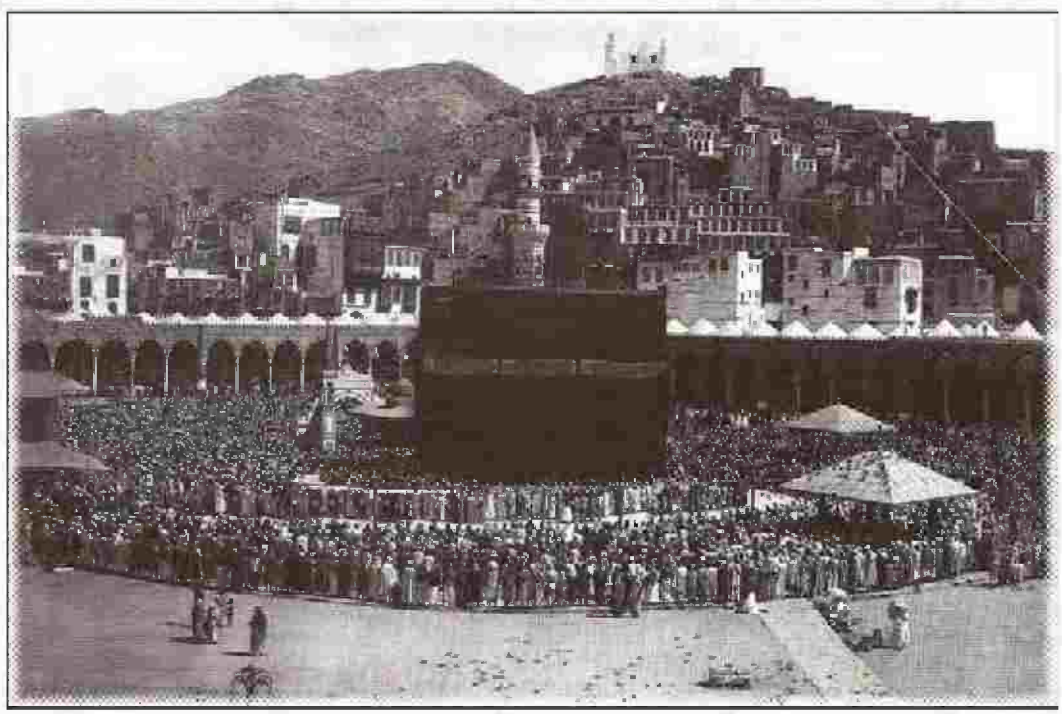

المسجد الحرام في العهد العثماني ويبدو في الخلف على قمة الجبل مسجد بلال ، تصوير ، ميرزا ، حوالي سنة ١٣٠٧ هـ ١٨٩٠ م

مصدر الصورة (مكة المكرمة والمدينة المنورة) صور نادرة ، نماذج من مقتنيات مكتبة الملك عبد العزيز العامة ، ١٤٢٧ هـ

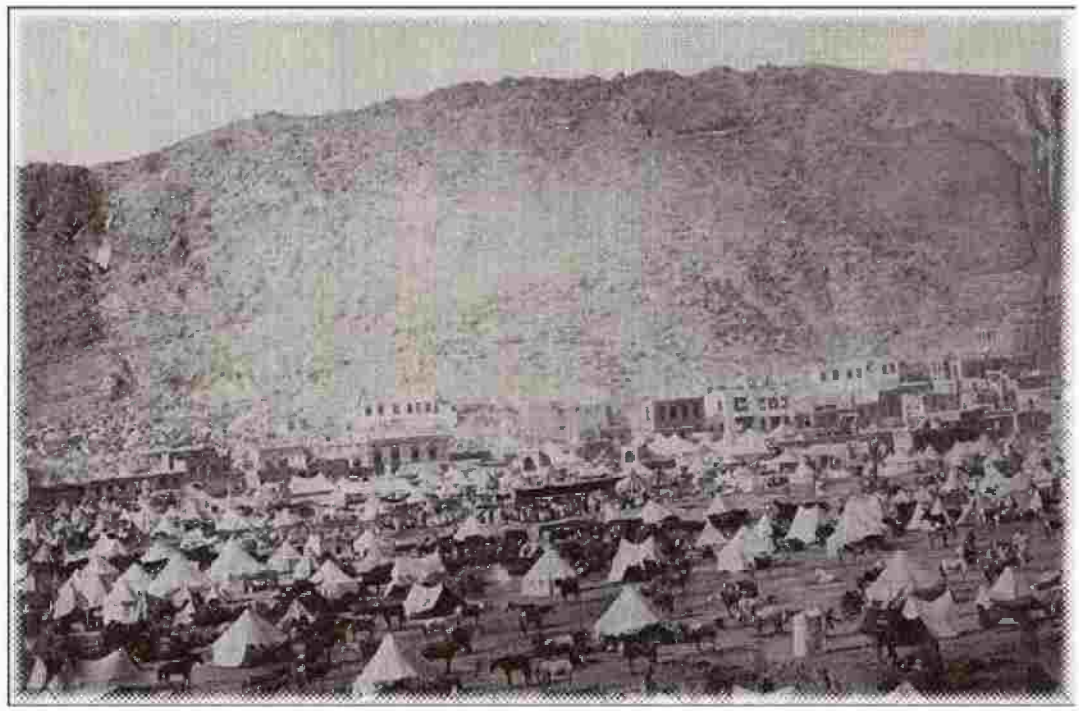

مخيم الحجاج في منى أيام العهد العثماني، تصوير ، محمد صادق بك سنة ١٢٩٧ هـ ١٨٨٠ م

مصدر الصورة (مكة المكرمة والمدينة المنورة) صور نادرة ، نماذج من مقتنيات مكتبة الملك عبد العزيز العامة ، ١٤٢٧ هـ

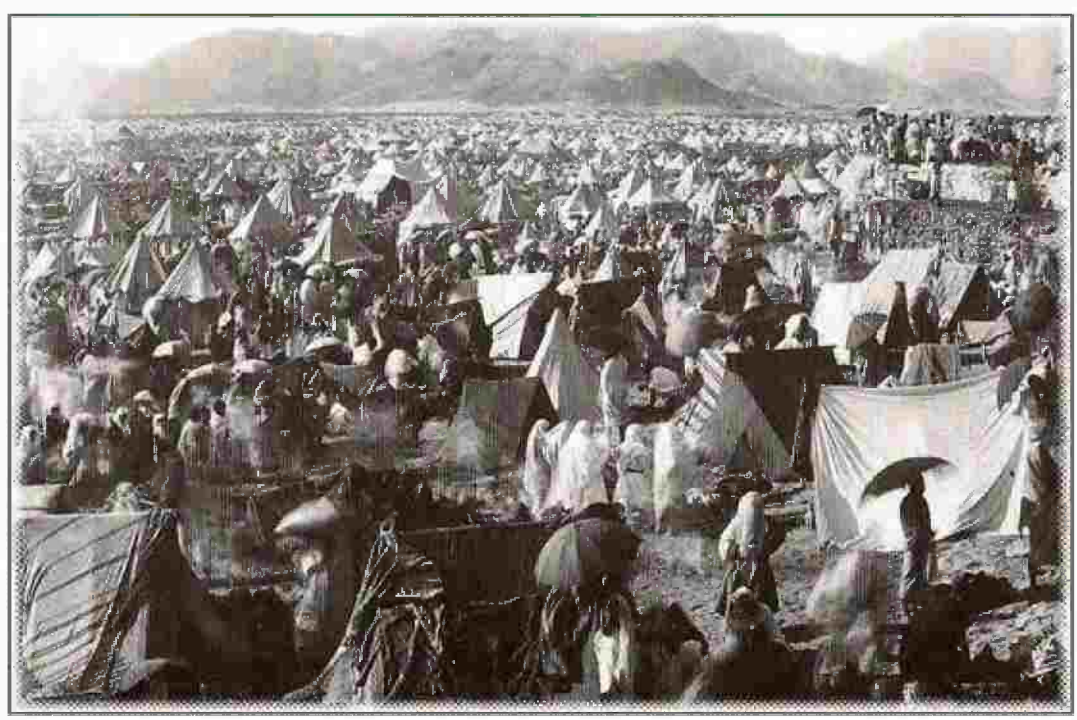

مخيم الحجاج في عرفات خلال العهد العثماني، تصوير ، ميرزا، حوالي سنة ١٣٠٧ هـ ١٨٩٠ م

مصدر الصورة (مكة المكرمة والمدينة المنورة) صور نادرة ، نماذج من مقتنيات مكتبة الملك عبد العزيز العامة ، ١٤٢٧ هـ

طريق الحج عبر سكة حديد الحجاز

عبد الحميد الثاني

يعتبر خط سكة حديد الحجاز من أروع إنجازات السلطان العثماني **عبد الحميد الثاني** من الناحية السياسية، والدينية، والحضارية؛ إذ استطاع هذا المشروع العملاق الذي امتد العمل فيه ثمان سنوات متتالية أن يقدم خدمات جليلة **لحجاج بيت الله الحرام**، تمثلت في اختصار وقت هذه الرحلة الشاقة التي كانت تستغرق شهوراً، يتعرضون فيها لغارات المتربصين، ومخاطر ومشاق الصحراء، فأصبحت الرحلة بعد إنشاء هذا الخط الحديدي الذي بلغ طوله (١٣٢٠كم) تستغرق أياماً معدودة، ينعمون فيها بالراحة، والأمان.

وعاش المسلمون في كافة البلدان حلم إنشاء هذا الخط الحجازي، وتابعوا مراحل إنشائه، وتبرعوا له من أموالهم، وغطت هذه التبرعات ثلث تكاليفه، وتفجرت الحماسة الدينية في قلوب المسلمين، فالتفوا حول الخلافة العثمانية وسلطانها، بعد فترة طويلة من الركود.

وتخيل الكثيرون أن الصحوة بين المسلمين اقترب زمانها، وتجلت هذه المشاعر الفياضة في حماسة العمل، وسرعة إنجازه، وعندما **وصل أول قطار إلى المدينة النبوية حاملاً الحجاج اهمرت الدموع**، وانهالت الدعوات للسلطان عبد الحميد.

وقدم بعض الحاقدين، والناقمين على السلطان ممن عاصروه، أو المؤرخين من خصومه، تفسيرات تعسفية ادعوا فيها أن هدف إنشاء الخط الحجازي كان قمع الثورات في الحجاز؛ ولخدمة أهدافه العسكرية، وتوجهاته الاستبدادية! والواضح أن هؤلاء الخصوم لا يتركون فرصة للتقليل من شأن السلطان عبد الحميد الثاني - رحمه الله - إلا وجهوا فيها سهام حقدهم، ونقدهم إلى شخصه، حتى أعماله العظيمة طبعوها بطابع الاستبداد [1].

١ - مصطفى عاشور، إسلام أون لاين نت.

صادق باشا «الموبد العظم»

(كنت كل يوم أضع الخريطة أمامي، وأتتبع خط سير البارجة، وما كانت تمر بنا محاذية الموانئ والأنهار الحجازية، مثل: ينبع، ورابغ، وجدة كانت تتمثل أمام عيني جميع تلك البقاع، والقلاع التي على طريق الحج، وأبقى سلمات متذكراً تلك الأيام التي خلت في مالك البلاد النائية، حيث كنت متجولاً كالعرب الرحل تحت الخيام مدة ستة أشهر، عندما كنت مأموراً بمد السلك البرقي الحجازي، ومعي الكوكبة الفنية العسكرية. وقد كنت وقتئذ أُنْشِئُ الإقليم، والمناخ، وعرب البوادي، وكثيراً ما كانت أستحضر مشايخ العربان المتمادين؛ ليتناولوا الطعام معي، وكانوا كأنهم ليس بينهم شيء من العداوة حتى أنني لما كنت في مدائن صالح، دعوت رؤساء قبائل الأبيدا والفقير، وبلي، وطلبت منهم أن يعقدوا الهدنة ويسميها العرب العطوة فيما بينهم، فأجابوا طلبي، وعقدوا الهدنة لمدة سنة، وسبب توسطي للهدنة بين هؤلاء القبائل، هو احتياجنا لمساعدتهم في مد السلك البرقي، إلا أن السلك يمر من البلاد الساكنة فيه قبيلتي الأبيدا، والفقير، فكنا محتاجين لجمال عرب هاذين القبيلتين؛ لتتمكن من نقل ما يلزم لنا من ذخائر، ولوازم الجنود، وأعمدة الخشب، والأسلاك، وكنا مضطرين لجمال قبيلة بلي؛ لنقل أثني عشر عموداً تزلت في ميناء الوجه، يمرون بها من أراض جبلية صعبة المسالك، إلى قرب مدائن صالح، التي تبعد عن الساحل اثنتي عشرة مرحلة؛ فتقرر بهذه الهدنة أن تنقل كل قبيلة من القبائل المذكورة لوازمنا ضمن حدودها، وقد قاموا بهذا العمل حق القيام، فأنست الحضرة العلية السلطانية عليهم بالرتب، والوسامات السَّنِيَّة أنيس المشايخ الخلع السلطانية هي لعمال مخيم، أقيم لذلك بين ذوي المدافع، وعزف الموسيقى، وأصوات المربان، والأهالي ساعدة إلى السماء بالدعاء، للحضرة السلطانية، وحصل بإيصال السلك البرقي المذكور على الدولة، فوائد للناس أولها: التخاطب مع سكان مدينة النبي صلى الله عليه وسلم، وارتباطها مع باقي المعمورة من أنحاء الدنيا، ومنها أن المسافرين مع قافلة الحج ماكانوا يتجاسرون على التباعد عن القافلة ولو قليلاً، فالذي كان يتأخر لتعب، أو لغيره كان يضل في الصحاري القفرة، فيدركه الموت من الجوع، والعطش، أما الآن فإن المسافر الذي تخلف عن القافلة يمكنه أن يهتدي بأعمدة السلك البرقي التي لا تكاد تخلو من واحد منها مقام دليل في تلك البوادي!

وقد رأيت عندما كنت في وظيفة معاون لناظر إنشاءات السكة الحديدية الحجازية أن كثيراً من الفقراء، الذين لا يؤذن انتظار القافلة يذهبون على قدامهم محاذين السلك البرقي، ومتزودين بما يلزم لقوتهم من القلاع السلطانية.

كنت كتبت عندما كنت بالوظيفة المار ذكرها كثيراً بخصوص تلك البلاد، وهي رحلة كبيرة، ولكن احترق ما كتبته أيضاً (يقصد حريق منزله في الآستانة) ولم يبق من كل ذلك إلا ما علق بالأذهان ... .

رحلة الحبشة لصادق باشا الموبد العظم

القطار البخاري في عنفوان أمجاده أيام الدولة العثمانية	
المؤسس	السلطان العثماني عبد الحميد الثاني
سنة التأسيس	١ من المحرم ١٣١٨هـ ١٩٠٠ م
الرحلة الأولى	انطلقت من دمشق في ٢٢ آب ١٩٠٨ م
الوجهة	الديار المقدسة لأداء فريضة الحج
مدة الرحلة	خمسة أيام بدلاً من ٤٠ يوماً
بداية الطريق	دمشق ثم المرور على بعض المحطات لتنتهي في المدينة
طول الخط	١٣٢٠ كم
المحطات الرئيسة	محطة الحجاز (دمشق) - درعا - نابلس - محطة الزرقاء - محطة عمّان - حيفا - معان - تبوك - مدائن صالح - المدينة النبوية « المنورة »
سنوات الخدمة	تسع سنوات
أسباب التوقف	تعرضها للتخريب أواخر الحرب العالمية الأولى ١٩١٦ م

مسار خط حديد الحجاز التاريخي

محطات رئيسة على طريق السكة

خارطة مسار خدمة خط حديد الحجاز التاريخي

خريطة تاريخية عثمانية تبين مشروع خط سكة حديد الحجاز.

بداية خط سكة الحديد من دمشق.

خط السكة القائم

نهاية خط سكة الحديد في المدينة.

خط السكة المقترح

لم تستطع الحكومة العثمانية مد خط سكة الحديد إلى مكة لمعارضة بعض القبائل من حرمانها من فائدة نقل الحجاج من المدينة إلى مكة عبر الجمال.

بدايات العمل في مد سكة حديد الحجاز

مجموعة من قاصدين الحج في انتظار القطار

مؤلف ومصمم الأطلس بجوار إحدى عربات قيادة القطار الأخرى في مدائن صالح بمحافظة العُلا في شمالي المدينة المنورة.

لقطات مختلفة من محطة سكة حديد الحجاز العثماني في المدينة النبوية.